دكتور بهاء الأمير

الدولة العثمانية والمغرب



٢٠٢٠م

دكتور بهاء الأمير

الدولة العثمانية والمغرب



٢٠٢٠م

Najlae Dh



السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أرجو من الدكتور بهاء الأمير الإجابة عن سؤالي هذا: لماذا يعتبر المغرب البلد العربي والمسلم الوحيد الذي لم يدخل في خلافة الدولة العثمانية، بالرغم من أنه وصل إلى جارتنا الجزائر؟

وجزاك الله خيراً على ما تقدمه لنا من علم، و جعله الله في ميزان حسناتك.

Najlae Dh



شكراً لك دكتور عن كل ما تقدمه لنا، والله أنت مفخرة لنا.

أرجو أن تجيب عن سؤال واحد لطالما بحثتُ عن جواب مقنع له، وهو أن الدولة العثمانية كانت جامعة لبلاد الإسلام من المحيط إلى الخليج، لكنها لم تضم المغرب، ويعتبر البلد العربي الوحيد الذي لم يدخل في الدولة العثمانية، فما هي الأسباب؟

الإجابة

دكتور بهاء الأمير

(١)

الدولة العثمانية، مثل جميع دول الإسلام الكبرى، كانت وظيفتها الأولى جمع بلاد الإسلام، والحفاظ على منظومتها العقائدية والأخلاقية والتشريعية، وعلى مسارها الذي بدأ مع الدولة النبوية ودولة الراشدين، وحمايتها من أعدائها، الذين هم أعداء هذه المنظومة وهذا المسار.

ومن أجل ذلك، وككل دول الإسلام الكبرى أيضاً، كانت الدولة العثمانية تعمل على ضم ما تقدر عليه من بلاد الإسلام إليها.

وفي جميع دول الإسلام لم يكن هذا احتلالاً ولا استعماراً، كالذي فعلته دول الغرب في كل بلد وطئته جيوشها، فضم أي دولة من دول الإسلام لبلد لم يكن يعني سوى إعلان من يحكمونه الولاء لها، والدعاء للخليفة أو السلطان، وضرب السكة/العملة باسمه، دون أي مساس بعقائد أهل البلد أو تقاليدهم أو مصالحهم أو أنسجتهم الاجتماعية أو قادة المجتمع من العلماء، وأول أمر كان يصدره السلاطين وقادة الجيوش العظام، مثل صلاح الدين وبيبرس وسليم

الأول، بعد انتهاء المعارك وفتح أي بلد، كان تأمين أهل البلد وضبط الأسواق.

فهذا الضم، بتعبيرات زماننا، لم يكن يعني في الحقيقة سوى توحيد السياسة الخارجية والدفاعية.

ولذا بعد أن ضم العثمانيون مصر تركوا إدارة شؤونها للمماليك، رغم أنهم قاتلوهم من أجل هذا الضم.

وفي بعض الأحيان كان حكام الدول الصغيرة يطلبون هم أنفسهم الانضمام إلى الدولة العثمانية، وأن يحكموا دولهم باسمها، لأن هذا الانضمام إلى إمبراطورية الإسلام الكبيرة يرد أعداءهم عنهم ويصنع لهم مهابة في قلوبهم.

وكان من سياسات الدولة العثمانية دعم الدول المسلمة في أطراف العالم الإسلامي في مواجهة القوى الغربية، حتى لو لم تكن تابعة لها.

ومن ذلك أن علاء الدين سلطان أتشيه في سومطرة، أرسل سنة ١٥٦٤م إلى السلطان سليمان القانوني، أن البرتغاليين يهددون دولته وأغلقوا مضيق ملقا الذي تمر منه تجارة التوابل، فأرسل إليه السلطان سليمان القانوني عشر مدافع كبيرة مع أطقمها وخبراء لتدريب جنود أتشيه على استخدامها، ومعهم مبعوث خاص قام بتوقيع اتفاقية مع السلطان علاء الدين لفتح خط ملاحي بين أتشيه وموانى البحر

الأحمر العثمانية، باسم الدولة العثمانية، لكي لا تتجرأ أساطيل البرتغال على مهاجمته.

وبعدها بسنتين أرسل علاء الدين سلطان أتشيه إلى السلطان سليمان القانوني يطلب منه ضم سلطنته إلى الدولة العثمانية وأن يحكمها باسمها، ووافق الديوان السلطاني على طلبه.

(٢)

الدولة العثمانية نشأت في الأناضول، كامتداد لدولة السلاجقة، وهذه الدول، مثل دول الأيوبيين والمماليك قبلهما، نشأت كدول عسكرية مجاهدة، وكانت نشأتها إفرازاً أو رد فعل لضعف عالم الإسلام واجتياح الصليبيين والتتار لبلدانه.

ثم تمددت الدولة العثمانية، وكان تمددها وجبهتها الرئيسية في اتجاه أوروبا والغرب، وليس في اتجاه الشرق، وتحول الدولة العثمانية إلى الشرق بعد أكثر من قرنين من نشأتها، حتَّمه أوضاع الشرق، وتحديداً مسألتان، الأولى هي ظهور الدولة الصفوية في فارس وانشطار عالم الإسلام بسببها، والثانية هي تسلط أساطيل البرتغال على البحار والمحيطات المحيطة بعالم الإسلام، واختراقها للممرات المائية الواصلة إلى قلبه، وإغلاقها لطرق الحج والتجارة الإسلامية.

والسبب المباشر لتوجه السلطان سليم الأول إلى الشرق كان استفحال شأن الدولة الصفوية ومؤسسها الشاه إسماعيل، حتى صارت تهاجم الأناضول وتسعى إلى اقتطاع بلدانه وضمها إليها.

وفي سنة ٩٢٠هـ/١٥١٤م، سحق الجيش العثماني الذي كان يقوده السلطان سليم الأول بنفسه جيش الشاه إسماعيل في موقعة جالديران، ودخل العاصمة الصفوية تبريز.

وقبل زحف السلطان سليم الأول على فارس، كان قد أرسل إلى السلطان قنصوة الغوري في مصر يطلب منه أن يتحالف معه للقضاء على الدولة الصفوية، فاعتذر السلطان الغوري، رغم أن الدولة العثمانية سبق أن تعاونت مع السلطان الغوري وأمدته بالسلاح والعتاد والمؤن أثناء مواجهته للبرتغاليين في الهند.

والقشة التي قصمت العلاقة بينهما، أن السلطان سليم الأول وهو يزحف على فارس عسكرَ في قونية، وأرسل إلى علاء الدولة ذي القدر، حاكم إمارة ذي القدر، وهي في وادي طوروس، وتتاخم فارس والدولة الصفوية، يطلب منه التعاون معه في قتال الصفويين وإمداد جيشه بالمؤن، فرفض علاء الدولة، ثم زاد على ذلك أن قام بمهاجمة قوافل المؤن والذخيرة في ساقة الجيش العثماني. وكان علاء الدولة موالياً للمماليك.

(٣)

بعد ضم السلطان سليم الأول لمصر والشام والحجاز، وهي قلب بلاد العرب والإسلام، لم يكن شاغله الأول ولا الاهتمام الأكبر للدولة العثمانية التمدد خلفها إلى شمال إفريقيا، رغم تسلط الأساطيل الإسبانية عليه، واستيلائها على جُل مواني البحر المتوسط الإفريقية، بل كان الشاغل الأول للسلطان سليم الأول والدولة العثمانية كلها إجلاء البرتغاليين عن البحر الأحمر وبحر العرب والبحار الواصلة بين الهند وأرخبيل ملقا وبين قلب بلاد الإسلام، وكانت الأساطيل البرتغالية قد وصلت فعلاً إلى جدة وترابط أمامها.

ولأن الدولة العثمانية لم يكن لها أسطول في البحار الشرقية، كان من أوائل أعمال السلطان سليم الأول في مصر الأمر بإصلاح الترسانة البحرية في السويس، وإنشاء أسطول السويس أو أسطول الهند، في البحر الأحمر.

وضم الجزائر إلى الدولة العثمانية لم يكن بمبادرة من الدولة العثمانية، وإنما كان ثمرة ما ذكرناه سابقاً، من أن سياستها كانت تقوم على دعم أي قوة مسلمة تجاهد القوى الغربية حتى لو لم تكن تابعة لها، وأيضاً سعي هذه القوى نفسها للانضمام للدولة العثمانية لكي يمنحها هذا الانضمام مهابة وقوة في مواجهة القوى الغربية.

والذي أدخل الجزائر في سلطة الدولة العثمانية، الأخوان عَرُّوج وخير الدين بارباروسا، وهما أصلاً من جزر بحر إيجة في اليونان، ثم دخلا في خدمة السلطان قنصوة الغوري، الذي نصَّب عَرُّوج قائداً لأسطول السويس، ولكن غاية الأخوين بارباروسا كانت في البحر المتوسط، ولذا استأذن عروج السطان الغوري أن يجاهد في البحر المتوسط، وصار يهاجم سفن إسبانيا والبندقية.

ثم أذن لهما سلطان الدولة الحفصية في تونس، أبو عبد الله محمد المتوكل، بالرسو في ميناء حلق الوادي، شمال تونس، والجهاد منه في البحر المتوسط، دون أن تنقطع صلتهم بالسلطان الغوري، وكانت أُولى غزواتهم في ربيع الأول سنة ٩١٩هـ/١٥١٤م، قبل توجه السلطان سليم الأول للشرق ومعركة جالديران.

وأول اتصال لعروج وخير الدين بالجزائر، كان بعد أن طار صيتهما في مهاجمة سفن إسبانيا وموانيها، إذ استنجد بهما ملك قَسنطينة، أبو بكر الحفصي، وعلماء بجاية وأعيانها، لإنقاذهم من الإسبان الذين يتسلطون عليهم، وتمكنوا فعلاً بمساعدة المجاهدين من أهل بجاية وما حولها من إنزال هزيمة منكرة بالجنود الإسبان في قلعة بجاية وأسطولهم الرابض أمامها، سنة ٩٢٠هـ/١٥١٥م.

وفي شهر المحرم ٩٢٢هـ/مارس ١٥١٦م، أرسل الأخوان بارباروسا، رسولاً إلى السلطان سليم الأول يخبره بنبأ جهادهما للإسبان في شمال إفريقيا، ومعه هدية للسلطان، فسُر سليم الأول

بذلك، وأمر بإرسال سفينتين حربيتين كبيرتين بأطقمهما إلى الأخوين بارباروسا لإعانتهما في جهادهما.

وبعد بجاية، فتح الأخوان بارباروسا الجزائر واستعادوها من الإسبان، ثم شرشال، فتلمسان، وفيها استشهد عروج.

وبايع علماء الجزائر وأعيانها خير الدين سلطاناً عليها، وبعد مبايعته قال لهم خير الدين بارباروسا، كما يقول هو نفسه في مذكراته:

"قد رأيتم ما فعله بنا صاحب تلمسان من بني زيان، واستعانته علينا بغير ملتنا، وصاحب تونس الحفصي لا رأي له في نصرتنا وإعانتنا، وأسلمنا للعدو بمنع البارود عنا، فالرأي هو أن نصل أيدينا بالقوة الإسلامية، وهو السلطان سليم خان، ونعتمد عليه في حماية هذه المدينة، ولا يكون ذلك إلا ببيعته والدخول في طاعته، بالدعاء له في الخطب على المنابر، وضرب السكة باسمه، فاستكانوا لذلك ورضوا به، وكتبوا بذلك للحضرة السلطانية".

وفي شهر مايو ١٥١٩م، أرسل خير الدين بارباروسا سفارة إلى السلطان سليم الأول في إسلام بول/اسطنبول، وعلى رأسها حاجي حسين أغا، وكان من أوثق رجاله، فاستقبله السلطان، واحتفى به وبالبعثة التي معه في قصور الضيافة السلطانية واحداً وأربعين يوماً.

وقبل رحيل البعثة قام حاجي حسين أغا بزيارة لوداع السلطان سليم الأول، فسلمه السلطان فرماناً كتبه بيده، وفيه رفعُ الجزائر إلى مرتبة إيالة/ولاية، وأمرٌ بتعيين خير الدين بارباروسا بكلربك/والي على الجزائر، ثم أرسل السلطان مع حاجي حسين أغا سيفاً مرصعاً والراية السلطانية إلى خير الدين، وأرسل معه أربعة آلاف جندي، بمدافعهم وبنادقهم، مدداً لإيالة الجزائر.

وبذلك صارت الجزائر ولاية عثمانية رسمياً، وصار أسطولها جزءًا من الأسطول العثماني، وتمكن باربروسا من إخراج الإسبان من البحر المتوسط، وإجلائهم عن جميع موانيه الإفريقية، ثم مد نشاطه إلى الشواطئ الإسبانية نفسها، وصار يُغير على موانيها في البحر المتوسط وفي مضيق جبل طارق، وتمكن من إنقاذ عشرات الآلاف من مسلمي الأندلس، ونقلهم بسفنه من إسبانيا إلى تونس والجزائر.

(٤)

أما المغرب، فعلاقتها بالدولة العثمانية إبان قوتها وتمددها في الشرق كانت مضطربة دائماً، وعدائية في أحيان كثيرة، ولم يتوافر لها الظروف التي أسهمت في انضمام الجزائر إلى دولة الإسلام الكبيرة، ولا أشخاص وحكام من طراز الأخوين باربروسا، الذي يُعلي وحدة أمة الإسلام وتوحدها في مواجهة الأخطار الخارجية، ورد أعدائها عنها، على الانتماءات العصبية والولاءات العائلية، وعلى شهوة الانفصال والانفراد بالحُكم والسلطة، وهي أدواء تسري في أمة

الإسلام، وارتفاع راياتها وشعاراتها كان سبباً في تفككها، ومدخلاً لأعدائها وإعانتهم على النوال منها، في كثير من العصور، بما فيها بلاليص ستان في القرن العشرين.

يضاف إلى ذلك كله بُعد المغرب جغرافياً عن مركز الدولة العثمانية، وظهور قوى غربية جديدة مناوئة للدولة العثمانية، ثم تعرضها لبعض الهزائم، مما جعلها تولي عنايتها وتوجه مجهودها الرئيسي نحو الغرب، خصوصاً وأن الدولة العثمانية منذ ضمت بلاد الشرق إليها واستقرت سلطتها عليها، كانت ترى العرب والمسلمين السُنة في الشرق عموماً ظهيراً تلقائياً لها، وليست بحاجة إلى جيوش كبيرة فيها.

ولذا لم يكن للدولة العثمانية في أغلب بلاد العرب والمسلمين السُنة سوى حاميات للمدن وتأمين الطرق.

وهذا هو الموجز، فإليك التفاصيل.

(٥)

منذ الربع الأخير من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، صار المغرب الأقصى، فاس ومراكش، تحت حكم بني وطاس، وهم فرع من زناتة، وكانوا قبل ذلك وزراء في دولة بني مرين، وهم أبناء عمومتهم، وبدأ حكم الوطاسيين بدخول السلطان محمد الشيخ المهدي الوطاسي إلى فاس، سنة ٨٧٥هـ/١٤٧٢م.

وإبان نزاع الوطاسيين مع بني مرين، تمكن البرتغاليون من الاستيلاء على ميناء أصيلة، وعلى نقاط أخرى في سواحل المغرب الأطلسية، أسفي والمعمورة وأزمور، وحولوها إلى مراكز لأسطولهم.

وفي سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٤م، توفي السلطان محمد الشيخ الوطاسي، وخلفه ابنه أبو عبد الله محمد، الملقب بالبرتقالي/البرتغالي، وكان البرتغاليون قد أسروه وهو صبي، إبان استيلائهم على أصيلة، ثم أطلقوه، وبمجرد اعتلائه العرش اعتمد سياسة الجهاد ضد البرتغاليين، وشن عدة حملات من أجل استعادة أصيلة وشواطئ المغرب الأطلسية منهم.

وإبان حملات السلطان أبي عبد الله محمد البرتقالي على البرتغاليين، كان قد ظهر أمر محمد القائم بأمر الله بن عبد الرحمن بن زيدان السعدي، في منطقة وادي درعة، في بلاد السوس، جنوب المغرب، بين جبال الأطلس والمحيط الأطلسي، والتفت حوله قبائل جنوب المغرب وغربها.

والسعديون ينتسبون إلى محمد النفس الزكية، حفيد الحسن بن علي بن أبي طالب.

وفي سنة ٩٣٥هـ/١٥٢٨م، وبعد أن استولى السعديون على مراكش وبضع مدن أخرى في جنوب المغرب، تمكن سلطانهم أحمد الأعرج السعدي، من إنزال هزيمة كبيرة بالسلطان أبي العباس أحمد

الوطاسي، في معركة أنماي قرب مراكش، ثم تم توقيع معاهدة بينهما، على اقتسام المغرب، فيكون للوطاسيين من تادلة وسط المغرب إلى الشمال وأقصى الغرب، بينما يكون للسعديين من تادلة إلى بلاد السوس في الجنوب.

وفي سنة ٩٤٣هـ/١٥٣٦م تمكن السلطان أحمد الأعرج السعدي من إلحاق هزيمة أخرى كبيرة بأبي العباس الوطاسي، في معركة وادي العبيد، قرب تادلة.

وفي سنة ٩٥١هـ/١٥٤٤م انتزع محمد الشيخ السعدي، المُلك من أخيه أحمد الأعرج السعدي وسجنه، ثم شن عدة حملات على الوطاسيين، فاستولى على مكناس، ثم حاصر فاس أربعة عشر شهراً، إلى أن استسلم السلطان أبو العباس الوطاسي، ووافق على تسليم فاس في مقابل الأمان.

ودخل محمد الشيخ السعدي فاس سنة ٩٥٦هـ/فبراير ١٥٤٩م، ثم أرسل السلطانَ السعدي، أبا العباس الوطاسي وجميع أفراد أسرته إلى مراكش، حيث قتلهم جميعاً، ما عدا ابن السلطان، علي أبي حسون، الذي ترك فاس إبان الحصار.

وبذلك صارت المغرب كلها تحت حكم السعديين، وأعلن محمد الشيخ السعدي نفسه سلطاناً عليها.

وقد أسهبنا قليلاً في هذه التفاصيل، لكي ترى ما كانت تعانيه المغرب من اضطرابات وقلاقل، وأيضاً وأهم من ذلك، لكي ترى عواقب التفكك وانعدام القوة الكبرى التي تجمع بلاد الإسلام معاً، ويمتنع في وجودها وتوحد البلاد بها أمثال هذه القلاقل والصراعات بين ضعاف القوة وصِغار النفوس، واستنصار بعضهم على بعض بأعداء الإسلام وأمته وأعدائهم جميعاً.

(٦)

بعد سيطرة السلطان محمد الشيخ السعدي على المغرب، اصطدم مع الدولة العثمانية والجزائر العثمانية، بل وسعى لغزوها والاستيلاء على مدن غرب الجزائر، لأن استراتيجية الدولة العثمانية عموماً، وفي شمال إفريقيا خصوصاً، كانت العمل على توحيد بلدانه في مواجهة الإسبان والبرتغال، بينما السلطان السعدي كان ينكر شرعية الدولة العثمانية ويسقط صفة الخلافة عنها وعن سلاطينها، لأنهم ليسوا من العرب، ويسعى لإقامة دولة منفصلة عن الدولة العثمانية، وشرعية حكم السعديين لها في نسبهم القرشي وانتسابهم إلى الأشراف، والدولة العثمانية إذ ذاك في أوج قوتها وذروة جهادها، وتوحد بلاد الإسلام من مشرق الشمس إلى مغربها، وتدفع عنها وعن المسلمين في كل مكان من العالم.



الدولة العثمانية في القرن السادس عشر

وفضل السلطان السعدي موالاة دولته للإسبان والبرتغال وتحالفها معهم في مواجهة الجزائر العثمانية، على التحالف مع الدولة العثمانية المسلمة، فما أشبه ليلة بلاليص ستان في القرن العشرين ببارحة السعديين في القرن السادس عشر!

بعد دخوله فاس، بدأ السلطان السعدي في مراسلة القبائل حول تلمسان وفي غرب الجزائر، وفي شهر أبريل ١٥٤٩م، بعد شهرين من دخوله فاس، أرسل جيشاً بقيادة ابنه فاستولى على مدينة وَجْدة، على التخوم بين المغرب والجزائر، ثم استولى على تلمسان في سنة ٩٥٥هـ/يونيو ١٥٥٠م، وأسر أميرها الحسن الزياني، حليف العثمانيين، فأرسل والي الجزائر العثماني، حسن بن خير الدين باراباروسا، جيشاً بقيادة حسن كورسو، وتمكن من استعادة تلمسان

في سبتمبر ١٥٥٠م، وولّى عليها عمر الزياني، وقُتل في المعركة اثنان من أبناء السلطان السعدي، ثم واصل كورسو زحفه، واستولى على جميع مدن المغرب شرق فاس، فانحصر سلطان السعديين في فاس ومراكش.

(٧)

وفي سنة ٩٥٧هـ/١٥٥٢م، وصل علي أبو حسون، ابن السلطان أبي العباس الوطاسي، الذي فر من فاس إبان حصار السعديين لها، إلى لشبونة، فاستنجد بملك البرتغال، خواو الثالث João III، على السعديين، الذي قتلوا أباه وأسرته.

ورآها خواو الثالث فرصة سانحة للاستيلاء على شواطئ المغرب المتوسطية، فأرسل مع أبي حسون قوة بحرية، فنزلت في ميناء الحُسيمة، في منتصف الشاطئ المتوسطي للمغرب، في رجب ٩٥٩هـ/سبتمبر ١٥٥٢م، ولكن أسطول الجزائر العثماني رصد حركة القوة البرتغالية، وتتبعها إلى الحُسيمة، حيث وقعت بينهما معركة بحرية انتهت بتدمير جميع سفن البرتغال، وأسر قادته ومعهم أبي حسون، ونقلهم إلى والي الجزائر، صالح رئيس، وكان السلطان سليمان القانوني قد عينه والياً على الجزائر بدلاً من حسن بن خير الدين بارباروسا.

وفي الجزائر عرض علي أبو حسون الوطاسي على واليها صالح رئيس أن يتحالف معه في استعادة فاس من السعديين، في مقابل اعترافه بسلطة الدولة العثمانية، فقاد صالح رئيس بنفسه أسطولاً عثمانياً، ورسا في جزيرة باديس أمام شواطئ المغرب المتوسطية، ثم زحف في اتجاه فاس، وفي طريقه إليها أنزل عدة هزائم بقوات السلطان السعدي، وفي ٣ صفر ٩٦١هـ/٨ يناير ١٥٥٤م، دخلت القوات العثمانية فاس، وعلى رأسها صالح رئيس والي الجزائر، ومعه أبو حسون الوطاسي.

وبعد أن استقر الأمر لأبي حسون سلطاناً على فاس، وقع خلاف بينه وبين القوات العثمانية التي تركها صالح رئيس لحمايته، فانسحب العثمانيون وعادوا إلى الجزائر، وكان السلطان السعدي قد انسحب إلى مراكش، وجمع حوله قبائل منطقة السوس وجنوب المغرب، فانتهز خروج القوات العثمانية من فاس، وزحف عليها بجيش القبائل المتحالفة معه، ودارت بينه وبين أبي حسون الوطاسي معركة، انتهت بقتل أبي حسون، ودخول محمد الشيخ السعدي فاس، في ٢٤ شوال ٩٦١هـ/٢٣ سبتمبر ١٥٥٤م.

(٨)

بموت أبي حسون الوطاسي، انقرضت الأسرة الوطاسية، وانفرد السلطان السعدي بالمغرب، ولم يعد يخشى على سلطنته سوى العثمانيين، ومن أجل دفعهم عن المغرب قرر أن يتحالف مع

البرتغال، فأرسل رسالة إلى الملك خواو الثالث، يطلب فيها التحالف معه، وإمداده بقوات بحرية لمواجهة العثمانيين في الجزائر.

ووافق الملك خواو الثالث على ذلك، بثلاثة شروط، الأول: تنازل السلطان السعدي للبرتغال عن ثلاث مواني على البحر المتوسط، هي: باديس وبنيون والعرائش، والثاني: إمداد السلطان السعدي للقوات البرتغالية التي سوف يرسلها الملك بالمؤن والماء، والثالث: اشتراك ملك إسبانيا، كارلوس الأول Carlos I، في الاتفاق.

وبالفعل تم توقيع الاتفاقية، في شهر المحرم ٩٦٢هـ/يناير ١٥٥٥م، بين ممثل ملك البرتغال، الكونت ألفارو دي كارفالهو Alvaro De Carvalho، حاكم مستعمرة مازاخاو Mazagão، في الشاطيء الأطلسي للمغرب، وممثل السلطان السعدي، المزوار المنصور بوغانم.

ومع ازدياد نفوذ البرتغال وإسبانيا في شواطئ المتوسط، وتمكن الإسبان من الاستيلاء على قلعة وهران، قرر السلطان سليمان القانوني تغيير سياسة الدولة العثمانية تجاه السعديين، ومحاولة استمالتهم لتوحيد القوى المسلمة في مواجهة البرتغال وإسبانيا، فأرسل سفارة إلى السلطان السعدي محملة بالهدايا، في مارس ١٥٥٧م، تعرض عليه السلم بين الدولة العثمانية وبين السلطنة السعدية، وإمداد الدولة العثمانية للسلطان السعدي بأي قوات يرغب فيها، على أن يشترك معها في الجهاد ضد الإسبان والبرتغال في البحر

المتوسط، ويضع اسم السلطان سليمان القانوني إلى جوار اسمه في الخطبة والسكة/العملة، كما كان يفعل بنو وطاس.

وكان رد السلطان السعدي:

"**سلم على أمير القوارب سلطانك، وقل له: إن سلطان المغرب سينازلك على محمل مصر، ويكون قتاله معك عليه إن شاء الله، والسلام**".

ورداً على رسالة السلطان السعدي قرر السلطان سليمان القانوني إرسال أسطول وجيش كبير إلى الجزائر لغزو المغرب، ولكنه تراجع عن قراره بعد استشارة الديوان السلطاني، لكي لا يكون ذلك ذريعة يفتح بها السلطان السعدي المغرب أمام توغل الإسبان والبرتغال، وكانت أساطيلهم ترابط فعلاً أمام شواطئها، وقرر بدلاً من ذلك العمل على التخلص من السلطان محمد الشيخ السعدي، فأرسل فريقاً خاصاً من اثني عشر رجلاً إلى المغرب، وتمكنوا من اغتيال السلطان السعدي في مراكش، في ٢٤ ذو الحجة ٩٦٤هـ/٢٣ أكتوبر ١٥٥٧م.

(٩)

بعد مقتل السلطان محمد الشيخ السعدي، خلفه ابنه عبد الله، باسم السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله السعدي، فواصل سياسة أبيه في موالاة الإسبان والبرتغال، واشترك مع حاكم قلعة وهران

الإسباني في شن حملة على ميناء مستغانم في الجزائر، سنة ٩٦٥هـ/١٥٥٨م، ولكن الحملة فشلت، وكبدتها قوات الجزائر العثمانية خسائر فادحة، وقُتل في المعركة حاكم وهران الإسباني.

وفي السنة التالية، ٩٦٦هـ/١٥٥٩م، عقد السلطان الغالب بالله السعدي اتفاقية مع ملك فرنسا، فرانسوا الثاني François II، تنازل فيها عن ميناء القصر الصغير، على البحر المتوسط، ويبعد عن مضيق جبل طارق بضعة كيلومترات، في مقابل إمداد فرنسا له بالسلاح والعتاد، وبفرقة عسكرية لتكون حرسه الخاص.

وفي سنة ٩٦٩هـ/١٥٦٢م أقر الغالب بالله السعدي بسلطة البرتغال على مازاخاو، وكانت دول المغرب قبله لا تعترف بها، وفي السنة نفسها أخلى جزيرة باديس وميناءها من المسلمين، وملَّكها للإسبان، لكي يضمن عدم وقوعها في يد الجزائر العثمانية، فحولها الإسبان إلى قاعدة كبرى لأسطولهم.

وكانت الدولة العثمانية قد شنت حملة برية من الجزائر، على السلطان الغالب بالله السعدي، سنة ٩٦٥هـ/١٥٥٨م، بعد تحالفه مع الإسبان في الحملة على مستغانم، ولكن الحملة العثمانية لم تستطع مواجهة قوات السلطان السعدي في المناطق الجبلية التي تحصنت بها في وادي اللبن، فاكتفت الدولة العثمانية بإسقاط شرعيته، عبر استقبال أخويه، عبد الملك وأحمد، وإيوائهما في الجزائر، ومطالبتهما منها بحقهما في عرش المغرب.

وكان عبد الملك وأحمد السعديان قد فرا من المغرب، ولجآ إلى الجزائر، بعد أن قتل الغالب بالله السعدي كل من طاله من إخوته، لكي ينصب ابنه محمداً ولياً لعهده، بدلاً منهم.

وكان عبد الملك وأحمد، بخلاف أبيهما وأخيهما، يكرهان الإسبان والبرتغال، ويرغبان في الجهاد ضدهما، بسبب تهديدهما الدائم للمغرب، وما يتعرض له المسلمون من إكراه على التحول للمسيحية بعد سقوط الأندلس.

ثم انشغلت الدولة العثمانية قليلاً عن المغرب، إذ في سنة ٩٧٢هـ/١٥٦٦م، توفي السلطان سليمان القانوني رحمه الله، في الثانية والسبعين من عمره، غازياً مجاهداً، وهو على رأس جيشه يحاصر حصن زيجتفار/سيكتوار Zigetvar في المجر، وبعد وفاته بدأ البابا بيوس الخامس Pius V، حملة شعارها توحيد دول أوروبا المسيحية في مواجهة الدولة العثمانية.

وانتهت حملة البابا بيوس الخامس بمعاهدة الحلف المقدس بين البابا ومملكة إسبانيا وجمهورية البندقية ومملكة نابولي ومملكة صقلية وجمهورية جنوة ودوقية توسكانيا ودوقية سافوي ومنظمة فرسان مالطا.

وأسفرت المعاهدة عن مواجهة بحرية بين الأسطول العثماني وأسطول التحالف المقدس، في خليج باتراس Patras، في البحر

الأيوني Ionian Sea، وانتهت بهزيمة الأسطول العثماني، في معركة ليبانتو Lepanto، سنة ٩٧٧هـ/١٥٧١م، وكانت أول معركة بحرية كبيرة تخسرها الدولة العثمانية في تاريخها.

وبعد معركة ليبانتو، اتفقت إسبانيا والبرتغال على انتهاز الفرصة والاتحاد معاً من أجل غزو شواطيء المتوسط الإفريقية.

وبالفعل أرسل ملك إسبانيا فيليب الثاني Philip II، اسطولاً من ١٣٨ سفينة إلى تونس، سنة ٩٨٠هـ/١٥٧٣م،، فاستولى على قلعة ميناء حلق الوادي، واحتل جنوده تونس، وانسحب واليها العثماني إلى القيروان، فأمر السلطان سليم الثاني بإعداد أسطول تحت قيادة الوزير سنان باشا وأمير البحر قلج علي باشا، وتمكن الأسطول العثماني من هزيمة الأسطول الإسباني وتدمير أغلب سفنه، واستعادة قلعة حلق الوادي وتونس.

وبعد معركة حلق الوادي انسحب الأسطول الإسباني نهائياً، وظلت تونس والجزائر عثمانية، إلى أن عادت لها الأساطيل الأوروبية مرة أخرى، مع احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠م، ولتونس سنة ١٨٨١م.

(١٠)

في السنة نفسها التي شهدت معركة حلق الوادي واستعادة الدولة العثمانية لتونس، توفي السلطان الغالب بالله السعدي، وخلفه ابنه

باسم السلطان محمد المتوكل على الله السعدي، فواصل سياسة أبيه وجده القائمة على موالاة الإسبان والبرتغال.

وفي الوقت نفسه انتهز عبد الملك وأخوه أحمد، ابنا السلطان محمد الشيخ السعدي، وأعمام المتوكل على الله، انتهزا انتصار الأسطول العثماني الساحق على الإسبان في معركة حلق الوادي، وطلبا من والي الجزائر، رمضان باشا، أن يسمح لهما بالوفود على السلطان سليم الثاني في إسلام بول/اسطنبول، لتهنئته بالانتصار العظيم وإعادة فتح تونس.

واستقبلهما السلطان سليم الثاني بنفسه، حيث طلبا منه معاونتهما على استرداد حقهما في عرش المغرب من ابن أخيهما، المتوكل على الله، على أن يشتركا مع الدولة العثمانية في الجهاد ضد الإسبان والبرتغال، فأصدر السلطان سليم الثاني فرماناً إلى والي الجزائر، رمضان باشا، بإمداد عبد الملك وأخيه بخمسة آلاف جندي من عسكر الجزائر العثماني، من أجل غزو المغرب، واستعادتها لهم من محمد المتوكل على الله الموالي للكفار.

وإبان زحف الجيش العثماني، وعلى رأسه عبد الملك وأحمد السعديان، انضم إليه سعيد الدغالي، أكبر قادة جيش المتوكل على الله، بجنوده، وكان الدغالي من الأندلسيين، ويكره المتوكل وأباه لانحيازهم إلى الإسبان والبرتغال ضد المسلمين.

وانتهت معركة الرُكن بدخول عبد الملك السعدي إلى فاس يوم ٧ من ذي الحجة سنة ٩٨٣هـ/١٣ مارس ١٥٧٦م، وانسحب المتوكل على الله إلى مراكش، فتبعه أحمد السعدي إلى مراكش ودخلها بجيشه، ولحقه أخوه عبد الملك، فدخل مراكش في ربيع الثاني ٩٨٤هـ/أغسطس ١٥٧٦م.

وفر المتوكل على الله إلى جنوب بلاد السوس، وجمع قبائلها حوله، ووقعت بينه وبين عميْه عدة معارك، انتهت جميعها بهزيمته، وأعلن عبد الملك نفسه سلطاناً على المغرب من مراكش، باسم السلطان المعتصم بالله عبد الملك السعدي، ونصَّب أخاه أحمد السعدي أميراً على فاس، ووليّاً لعهده.

وانتقل المتوكل على الله إلى باديس، ثم إلى طنجة، وكانت تحت سيطرة البرتغال، فأرسل رسالة إلى ملكها سباستياو الأول Sebastião I، يحرضه على غزو المغرب، ومعاونته على استرداد السلطنة من عمه، في مقابل تنازله للبرتغال عن جميع شواطئ المغرب المتوسطية.

وكانت هذه مقدمة لإحدى أكبر معارك المغرب، بالاشتراك مع الدولة العثمانية، في مواجهة البرتغال وحلفائها، وهي معركة وادي المخازن، أو معركة القصر الكبير.

(١١)

بعد أن رأى ملك البرتغال، سبستياو الأول، الفرصة سانحة لغزو المغرب والاستيلاء على شواطئها وموانيها المتوسطية، حشد، حسب رواية المصادر الغربية، اثني عشر ألف جندي من البرتغال، وكاتب البابا جريجوري الثالث عشر Gregory XIII، وملك إسبانيا فيليب الثاني، وفيليب الثاني خال سباستياو الأول، وخاطب كذلك عدداً آخر من ملوك أوروبا للاشتراك معه في الحملة على المغرب، فأمده فيليب الثاني بعشرين ألف جندي بأسحلتهم وذخائرهم، وأرسل إليه البابا أربعة آلاف جندي واثني عشر مدفعاً وألفاً وخمسمائة فرس، وأرسلت إيطاليا وألمانيا وإقليم فلاندرز بضعة آلاف أخرى من الجنود.

وتقول المصادر البرتغالية والغربية إن الحملة البرتغالية لم تتجاوز ثلاثين ألف جندي، بينما في المصادر المغربية أنهم كانوا حوالي ١٠٠,٠٠٠ مقاتل.

والتقدير البرتغالي الغربي لا يتناسب مع حجم أسطول الحملة، ولا مع خروج ملك البرتغال بنفسه على رأسها، وثَمة حملات برتغالية سابقة ولم يخرج فيها الملك بنفسه وكان تعدادها أكثر من ذلك.

والهدف الحقيقي من هذا التقدير المنخفض لقوات البرتغال والمتحالفين معها، هو التهوين من انتصار المغرب والتقليل من قيمته، وتبرير نتائج المعركة الفادحة على مملكة البرتغال.

وأبحرت الحملة من لشبونة، في مارس ١٥٧٨م، في أسطول من ألف سفينة وقارب، وعلى رأسها ويقودها سباستياو الأول بنفسه، فوصلت إلى طنجة، حيث انضم إليها المتوكل على الله السعدي مع أتباعه وجنوده، ثم من طنجة إلى ميناء أصيلة، فوصلتها الحملة يوم ٢٥ يونيو ١٥٧٨م.

ومن أصيلة أرسل المتوكل على الله السعدي رسله إلى علماء المغرب وأشرافها وأعيانها، برسالة، يخبرهم فيها أنه سلطان المغرب الشرعي، ويدعوهم إلى مناصرته لكي يستعيد سلطانه، ويبرر لهم استعانته بالبرتغال والإسبان، فيقول في رسالته:

"فما استصرخت بالنصارى حتى عدمت النصرة من المسلمين، وقد قال العلماء إنه يجوز للإنسان أن يستعين على ما غصبه حقه بكل ما أمكنه".

وما قاله المتوكل على الله السعدي في القرن السادس عشر، كما ترى، هو نفسه ذريعة دول بلاليص ستان في الانتصار بالإمبراطوريات الماسونية على الدولة العثمانية، وعلى بعضهم بعضاً في القرن العشرين.

وكان رد فقهاء المغرب على رسالة المتوكل على الله السعدي هو نفسه رد جميع علماء الإسلام وفقهائه في كل العصور على أمثاله، قبل أن يبتلي الله بلاليص ستان بحفظة الأكلشيهات ومؤلهة الحكام في القرن العشرين.

ورد علماء المغرب وفقهائه كان طويلاً، ونشره كاملاً مؤرخ المغرب في القرن التاسع عشر، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري الجعفري، في الجزء الخامس من كتابه: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، والذي خصصه للدولة السعدية.

ومما جاء في رد علماء المغرب على المتوكل على الله السعدي:

"فإنك اتفقت معهم (النصارى) على دخول أصيلا، وأعطيتهم بلاد الإسلام، فيالله ويا لرسول الله لهذه المصيبة التي أحدثتها، وعلى المسلمين فتقتها، ولكن الله تعالى لك ولهم بالمرصاد، ثم لم تتمالك أن ألقيت بنفسك إليهم ورضيت بجوارهم وموالاتهم، كأنك ما طرق سمعك قول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾، وقد أفتى العلماء رضوان الله عليهم بردة من استنصر بالنصارى على المسلمين، وهو نص جلي في وجوب خلعك، وسقوط بيعتك ... وقولك: "رجعت إليهم حين عدمت النصرة من المسلمين"، فيه محظوران، يحضر عند أحدهما غضب الرب جل جلاله، أحدهما: كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم على ضلال، وأن الحق لم يبق من يقوم به إلا النصارى والعياذ

بالله، والثاني: أنك استعنت بالكفار على المسلمين، وقول العلماء رضوان الله عليهم في الاستعانة بهم، إنما هو على المشركين، أما الاستعانة بهم على المسلمين فلا يخطر إلا على بال من قلبه وراء لسانه، وفي قولك: "يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه"، وجعلك ذلك دليلاً على جواز الاستعانة بالكفار على المسلمين، في ذلك مصادمة للقرآن والحديث، وهو عين الكفر أيضاً والعياذ بالله".

(١٢)

لما علم السلطان المعتصم بالله عبد الملك السعدي بنبأ الحملة البرتغالية، أرسل إلى أخيه أحمد في فاس، وأرسل السعاة إلى جميع أنحاء المغرب ومدنها، ينادون بالجهاد في سبيل الله ضد البرتغال، وأرسل كذلك سفارة إلى والي الجزائر العثمانية، حسن باشا البندقي.

وخرج السلطان المعتصم بالله بجيشه من مراكش إلى ميناء القصر الكبير، غرب المغرب، على البحر المتوسط، وبينها وبين مضيق جبل طارق حوالي ٣٠ كيلومتراً، وانضم إليه جيش أخيه أحمد القادم من فاس، وجيش الجزائر العثمانية، وانضمت إليه كذلك فرق من المجاهدين المتطوعين من أهل المغرب والقبائل العربية، وبلغت قوة الجيش السعدي أربعين ألف مقاتل.

والتقى الجيشان في وادي المخازن، قرب القصر الكبير، في معركة هائلة، يوم ٣٠ جمادى الأولى ٩٨٦هـ/٤ أغسطس ١٥٧٨م، وانتهت المعركة بانتصار المغرب، وتدمير الجيش البرتغالي عن آخره، إذ طبقاً للمصادر الغربية قُتل من الجيش البرتغالي ما يتراوح بين ثمانية آلاف واثني عشر ألف جندي، وأُسر خمسة عشر ألفاً آخرون، وهو ما يعني، حسب تقدير هذه المصادر نفسها لقوة الجيش البرتغالي قبل المعركة، أن الجيش البرتغالي لم يعد له وجود، وصار بين قتيل وأسير.

والأهم من الأعداد أنه قُتل في المعركة ملك البرتغال نفسه، سباستياو الأول، وكافة قواد جيشه، والطبقة الحاكمة والنبلاء، فكانت نتيجة معركة وادي المخازن، ليس فقط هزيمة الجيش البرتغالي، بل وأيضاً انهيار مملكة البرتغال، وانقراض أسرتها الحاكمة، ودخول البرتغال في مرحلة من الفوضى والاضطرابات، انتهت بضم فيليب الثاني، ملك إسبانيا، للبرتغال إلى مملكته، سنة ١٥٨١م، وهو كما علمتَ خال سباستياو الأول.

وقُتل في معركة وادي المخازن أيضاً المتوكل على الله السعدي، إذ غرق وهو يفر في نهر وادي المخازن، ومرض كذلك السلطان المعتصم بالله عبد الملك السعدي إبان المعركة، ولكنه واصل قيادة الجيش، إلى أن توفي رحمه الله بمرضه قبل نهاية المعركة، فتولى القيادة أخوه وولي عهده أحمد.

ولذا تعرف معركة وادي المخازن أيضاً باسم معركة الملوك الثلاثة.

وبعد انتهاء معركة وادي المخازن، أقام أحمد السعدي جنازة مهيبة لأخيه المعتصم بالله عبد الملك، ثم أعلن نفسه سلطاناً على المغرب، باسم السلطان أبي العباس أحمد المنصور السعدي، وكان من أوائل أعماله أنه أرسل سفارة برئاسة أحمد بن يحي الهوزالي، إلى سلطان الروم والمشرق/السلطان العثماني، مراد الثالث، في إسلام بول/اسطنبول، يخبره بنبأ:

"**ما هيأه الله من نصر دينه، وإعلاء كلمته، وهزيمة طواغيت الكفر**".

وأرسل السلطان مراد الثالث وفداً لتهنئة السلطان أحمد المنصور، برئاسة والي الجزائر، حسن باشا البندقي.

(١٣)

بعد معركة وادي المخازن، بنى السلطان أحمد المنصور دولة كبيرة قوية، مركزها المغرب، وصار أعظم سلاطين الدولة السعدية، وكانت علاقة الدولة العثمانية به ودية في مجملها، ومالت إلى الانصراف عن المغرب وعدم الصدام مع الدولة السعدية، رغم أن السلطان أحمد المنصور لم يدخل في طاعة السلطان العثماني،

وتلقب بلقب أمير المؤمنين، ولم تكن دولته تابعة للدولة العثمانية، بل مستقلة عنها.

وفي الوقت نفسه حافظ السلطان أحمد المنصور على علاقاته الودية مع الدولة العثمانية، مع استقلاله عنها، وكانت دولته تتمدد وتتوسع، ولكن بعيداً عن المناطق الواقعة تحت سلطة الدولة العثمانية ونفوذها.

وحين توفي السلطان مراد الثالث، سنة ١٠٠٣هـ/١٥٩٥م، أرسل السلطان المنصور سفارة إلى إسلامبول للتعزية فيه، ولتهنئة ابنه وخلفه، السلطان محمد الثالث، وجاء فيها:

"**وعندنا من موالاة ذلكم الجناب بجميل الود والمحبة المحكمة الربط والعقد، والمصافاة القديمة العهد، والمؤاخاة الإسلامية الموروثة عن الأب والجد، ما لا تزال لدينا على الدوام سورة تُتلى**".

وكان خلف مهادنة الدولة العثمانية للسلطان أحمد المنصور وانصرافها عن المغرب، عاملان اجتمعا معاً.

فأما العامل الأول: أن السلطان أحمد المنصور كان ذا حمية للإسلام، وللجهاد ضد أعدائه، وذا همة عالية، وهي نفسها أحد الأركان الرئيسية التي أقيمت عليها الدولة العثمانية، وغايتها العليا ووجهتها واستراتيجيتها في كل عصورها، فرأت الدولة العثمانية أن السلطان المنصور يكفيها بجهاده وفتوحاته مغرب العالم الإسلامي

وجبهة الإسبان في أقصى غرب أوروبا، خصوصاً مع انشغالها بمواجهة الحلف المسيحي المقدس، وحروبها المستمرة ضده في جنوب أوروبا ووسطها وشرقها.

والسلطان أحمد المنصور من جهته لم يسع للصدام مع الدولة العثمانية، خصوصاً مع دخول إسبانيا في الحلف المقدس ضد الدولة العثمانية، وتأييد إسبانيا ودعمها العسكري والمالي في الوقت نفسه لثورة الناصر بن السلطان الغالب بالله السعدي، وأخي السلطان محمد المتوكل على الله السعدي، والتي بدأها من جبال الريف، شمال شرق المغرب.

وكان الناصر قد لجأ إلى إسبانيا، فأمده ملكها فيليب الثاني بقوة بحرية وجيش من الموريسكيين، عرب الأندلس المتنصرين، وبأموال تمكن بها من استمالة قبائل الريف، وعقد حلف معهم ضد عمه السلطان أحمد المنصور.

(١٤)

وكان السلطان أحمد المنصور قد جعل غاية دولته ومحورها، الجهاد ضد الإسبان والبرتغال، والتوسع في بلاد إفريقيا جنوب الصحراء وضمها إلى دولته، فكون جيشاً كبيراً، مسلحاً بالمدافع والبنادق النارية، وبنى عدة دور لصناعة السفن الحربية، وكون أسطولاً قوياً.

وبدأ السلطان أحمد المنصور التوسع في سنة ٩٩١هـ/١٥٨٣م، بإرسال حملتين لضم منطقتي توات وتيكورارين، جنوب شرق الصحراء المغربية، وحولهما إلى قاعدة لجيشه، يتحرك منها في اتجاه الجنوب.

وفي السنة التالية، ٩٩٢هـ/١٥٨٤م، أرسل حملتين أخريين، وتمكنت الحملتان من ضم جميع المناطق الساحلية في الصحراء المغربية، من بلاد السوس شمالاً إلى نهر صنهاجة/نهر السنغال في غرب إفريقيا جنوباً.

وفي شهر المحرم سنة ٩٩٩هـ/١٥٩٠م، انطلقت الحملة الكبرى بقيادة جؤذر باشا، فاخترقت الصحراء المغربية متجهة نحو الجنوب، في اتجاه دولة الصُنغاي، أو السودان الغربي، في حوض نهر النيجر، وكانت تحكمها أسرة أسكية، وهي أسرة مسلمة رفضت الدخول في طاعة أحمد المنصور.

واستولت الحملة في طريقها على تندوف، المتاخمة لموريتانيا، أقصى جنوب الصحراء المغربية، وعلى تغازي، شمال مالي، ثم تمبكتو، أكبر حواضر غرب إفريقيا، إلى أن وصلت كارابار، على نهر النيجر.

وفي يوم ١٩ جمادى الأولى ٩٩٩هـ/١٢ مارس ١٥٩١م، كانت المعركة النهائية والحاسمة بين جيش السلطان أحمد المنصور

السعدي، وجيش دولة الصُنغاي، وانتهت بهزيمة جيش الصنغاي وتشتته، وفرار ملك الصنغاي، إسحق أسكية، من عاصمته كاغو، فدخلها جيش السلطان السعدي، في يوم ٢٠ رجب ٩٩٩هـ/٣١ مايو ١٥٩١م.

وعند وفاة السلطان أحمد المنصور سنة ١٠١٢هـ/١٦٠٣م، كانت الدولة السعدية قد بلغت أقصى اتساع لها، وتمتد من البحر المتوسط غرب الجزائر شمالاً، إلى حوض نهر النيجر جنوباً، ومن جنوب غرب فزان شرقاً، إلى المحيط الأطلنطي غرباً.



الدولة السعدية في عهد السلطان أحمد المنصور

غير أن الدولة التي كونها السلطان أحمد المنصور لم تدم طويلاً، إذ تنازع أبناؤه الثلاثة، زيدان وعبد الله ومحمد الشيخ، على السلطنة، فصار زيدان سلطاناً على فاس، وعبد الله على مراكش، ثم نازع محمد الشيخ زيدان واستولى على فاس، ودخل الإخوة الثلاثة في حروب استمرت عشرة سنوات، إلى أن قُتل عبد الله ومحمد الشيخ، وتمكن زيدان من دخول مراكش والانفراد بالسلطة، سنة ١٠٢٢هـ/١٦١٢م، ولكن بعد أن كانت إسبانيا قد انتهزت الفوضى والاضطراب الذي حدث، فقامت بغزو الشواطئ المغربية عدة مرات، واستولت مرة أخرى على مواني أصيلة والمعمورة والعرائش.

وبعد وفاة زيدان سنة ١٠٣٧هـ/١٦٢٦م، انحلت الدولة السعدية، وانقسمت إلى أقاليم، وتسلط على كل إقليم حاكمه، وانحصر نفوذ السلاطين السعديين في مراكش والمناطق المحيطة بها، وكان آخرهم أبا العباس أحمد السعدي الصغير.

ثم سقطت الدولة السعدية سنة ١٠٧٦هـ/١٦٦٦م، وورثتها دولة الأشراف العلويين، وهم أيضاً ينتسبون إلى محمد النفس الزكية.

(١٥)

وأما العامل الثاني خلف انصراف الدولة العثمانية عن المغرب، وعدم سعيها للصدام مع الدولة السعدية، فهو انشغال الدولة العثمانية بمواجهة الدولة الصفوية في الشرق، والحلف المسيحي المقدس في

أوروبا، وخوضها معارك متواصلة ضدهما، إبان تمدد دولة السلطان أحمد المنصور السعدي، وبعد وفاته.

فأما المواجهات مع الدولة الصفوية، فقد خاضت الدولة العثمانية ثلاث حروب كبرى، في الربع الأخير من القرن السادس عشر، ضد الدولة الصفوية، بعد ازدياد قوتها وسعيها للتمدد في البلاد السنية خارج فارس، وهي معركة جلدر، ومعركة شماخة، سنة ١٥٧٨م، وهي سنة معركة وادي المخازن، ومعركة المشاعل، سنة ١٥٨٣م.

وانتهت المعارك الثلاث بانتصار الدولة العثمانية، وغزوها لمناطق القوقاز المحيطة ببحر قزوين، وفصلها عن الدولة الصفوية، وضمها للدولة العثمانية.

وأسفرت هذه الانتصارات عن توقيع معاهدة سنة ١٥٩٠م، هي معاهدة إسلام بول، أو معاهدة فرهاد/فرحات باشا (قائد الجيش العثماني)، وفيها أقر الشاه الصفوي طهماسب الأول بسيادة الدولة العثمانية على بلاد القوقاز، أذربيجان وأوزبكستان وأرمينيا وجورجيا وداغستان، وبالتعهد بعدم اضطهاد المسلمين السنة في فارس.

وفي سنة ١٥٩٨م، قدِمت إلى فارس بعثة عسكرية بريطانية، من ستة وعشرين شخصاً، بتكليف من الجنرال روبرت ديفيرو Robert Devereux، إيرل إسكس Essex.، وكان على رأس البعثة السير أنتوني شيرلي وأخوه السير روبرت شيرلي، وهما من العسكريين،

وكان هدف البعثة إقناع الشاه الصفوي عباس الأول بالتحالف مع القوى المسيحية في أوروبا في مواجهة الدولة العثمانية، وفتح الطريق لإقامة علاقات تجارية مع انجلترا.

ووافق الشاه عباس، فقامت البعثة بتدريب الجيش الصفوي وإعادة تنظيمه حسب التنظيمات الأوروبية الحديثة، وأشرف بعضهم على إقامة مصانع للمدافع والبنادق في أصفهان، وصار روبرت شيرلي القائد الأعلى لجيش الشاه الصفوي.

وفي سنة ١٦٠٣م، بدأ الشاه عباس بجيشه الجديد حرباً على الدولة العثمانية، وتمكن من هزيمة الجيش العثماني، فانتهت الحرب بمعاهدة نصوح باشا (الصدر الأعظم)، سنة ١٦١٢م، وفيها تنازلت الدولة العثمانية عن أذربيجان وجورجيا للدولة الصفوية، مقابل أن تقدم فارس للدولة العثمانية حِمل ٢٠٠ جمل من الحرير الفارسي سنوياً.

وفي سنة ١٦٢٤م، انتهز الشاه عباس انشغال الدولة العثمانية في مواجهة الحلف المسيحي في أوروبا، وقام بغزو العراق، وتمكن من الاستيلاء على بغداد، وقتل عدداً كبيراً من أهلها السنة، في إطار سياسته التي تهدف إلى تشييع العراق، فسيَّر السلطان العثماني مراد الرابع، في السنة التالية، ١٦٢٥م، جيشاً بقيادة الصدر الأعظم أحمد حافظ باشا، فحاصر بغداد بضعة أشهر، ثم اضطر لرفع الحصار،

بسبب دخول الشتاء وبرده القارس، وقطع الجيش الصفوي لخطوط إمداد الجيش العثماني.

وفي سنة ١٦٢٩م، أرسل السلطان مراد الرابع جيشاً آخر، بقيادة الصدر الأعظم خسرو باشا البوسنوي، إلى فارس، فتوغل في أراضيها، وتمكن من هزيمة جيش الشاه صفي الصفوي، في معركة ماهيدشت، قرب كرمنشاه، سنة ١٦٣٠م، ثم عاد إلى العراق، فحاصر بغداد، ولكنه اضطر مرة أخرى لرفع الحصار بسبب دخول الشتاء.

وبعدها قام الصفويون بمذبحة قتلوا فيها آلافاً من الأكراد السنة، انتقاماً منهم لاشتراكهم مع الجيش العثماني في القتال.

ثم في سنة ١٦٣٥م خرج السلطان مراد الرابع بنفسه على رأس جيش، إلى فارس، وألحق بالجيش الصفوي هزيمة فادحة، ودخل عاصمة الصفويين تبريز وخربها.

وفي سنة ١٦٣٨م، قاد السلطان مراد الرابع جيشاً آخر إلى العراق، فحاصر بغداد ٣٩ يوماً، إلى أن استسلم الجيش الصفوي، ودخلها فاتحاً.

وانتهت حملات السلطان مراد الرابع على الصفويين، بتوقيع معاهدة زُهاب، في قصر شيرين، في كركوك، يوم ١٧ مايو ١٦٣٩م، والتي استقرت بها الحدود بين الدولة العثمانية والدولة

الصفوية، على أن تكون العراق للدولة العثمانية، في مقابل أن تكون للدولة الصفوية منطقة يريفان Yerevan، في حوض نهر هرزدان Hrazdan، في أرمينيا، ومنطقة أخالتسيخه Akhaltsikhe في جورجيا.

أما المواجهات مع الحلف المسيحي المقدس في أوروبا، فبعد أن استردت الدولة العثمانية توازنها، في أعقاب هزيمتها أمام الحلف المقدس، في معركة ليبانتو سنة ١٥٧١م، سيَّر السلطان مراد الثالث جيشاً بقيادة الغازي حسن باشا التلي، سنة ١٥٩٣م، فاخترق الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ووصل إلى مدينة سيساك Sisak في مملكة كرواتيا، وحاصر قلعتها، فاجتمعت جيوش إمبراطورية الهابسبورج ومملكة كرواتيا ودوقية النمسا معاً، تحت قيادة الدوق روبريخت فون إيجنبرج Ruprecht von Eggenberg، وتمكنت من فك الحصار عن سيساك، ورد الجيش العثماني عنها.

وفي سنة ١٥٩٦م، سار السلطان محمد الثالث بنفسه على رأس جيش كبير، فوصل إلى بلجراد، ثم عبر نهر السافا، وتوغل في أراضي النمسا، وحاصر قلعة إيجر Eger، وهي قلعة استرتيجية تتحكم في الطرق الواصلة بين وسط أوروبا وشرقها، وتمكن الجيش العثماني من فتحها، فتكون جيش مشترك من الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وإمارة ترانسلفانيا، ومملكة المجر، ومملكة إسبانيا، والدولة البابوية، وكان على قيادته أرشيدوق النمسا، مكسميليان الثالث

MaximilianIII، وأمير ترانسلفانيا، سيجسموند باتوري Sigismund Báthory، وانتهت معركة هاجوفا Haçova، بانتصار الجيش العثماني على جيوش الحلف المقدس.

وبعدها لم تتوقف المواجهات الحربية بين الدولة العثمانية والأحلاف الأوروبية المختلفة، وخلال القرن التالي، القرن السابع عشر، خاضت الدولة العثمانية خمسة عشر حرباً في أوروبا، وهي:

١-معركة سيسورا Cecora، سنة ١٦٢٠م، في مواجهة حلف بولندي ليتواني روماني.

٢-معركة هوتين Hotin، سنة ١٦٢١م، في مواجهة حلف بولندي ليتواني.

٣-معركة فوتشه Focchies، سنة ١٦٤٩م، في مواجهة حلف بين جمهورية البندقية وتنظيم فرسان مالطا.

٤-معركة الدردنيل الأولى، سنة ١٦٥٤م، في مواجهة جمهورية البندقية.

٥-معركة الدردنيل الثانية، سنة ١٦٥٥م، في مواجهة البندقية.

٦-معركة الدردنيل الثالثة، سنة ١٦٥٦م، في مواجهة البندقية.

٧-معركـة الـدردنيل الرابعـة، سـنة ١٦٥٧م، فـي مواجهـة حلـف جمهورية البندقية وفرسان مالطا والدولة البابوية.

٨-معركة القديس جوتهارد Saint Gotthard، سنة ١٦٦٤م، فـي مواجهـة حلـف الـراين، الـذي يتكـون مـن فرنسـا والإمبراطوريـة الرومانية المقدسة وإمارة بافاريا وإمارة بروسيا ودوقية سافوي.

٩-معركة هوتين الثانية، سنة ١٦٧٣م، في مواجهة حلف بولندي ليتواني.

١٠-معركـة فيينـا، سـنة ١٦٨٣م، فـي مواجهـة حلـف يتكـون مـن إمبراطوريـة الهابسـبورج والنمسـا وبولنـدا وليتوانيـا وإمـارات ساكسـونيا وفرانكونيا وسوابيا وبافاريا.

١١-معركـة موهاكس/موهـاج الثانيـة Mohács، سـنة ١٦٨٧م، فــي مواجهــة حلــف مــن الإمبراطوريــة الرومانيــة المقدســة وبولنــدا وليتوانيا.

١٢-معركة سلانكمن Slankamen، سنة ١٦٩١م، في مواجهة حلف من الإمبراطورية الرومانية المقدسة ومملكة كرواتيا وصربيا.

١٣-معركة أوينوسيس Oinousses، سنة ١٦٩٥م، في مواجهة جمهورية البندقية.

١٤-معركة أندروس Andros، سنة ١٦٩٦م، في مواجهة حلف من جمهورية البندقية والدولة البابوية.

١٥-معركة زِنتا Zenta، سنة ١٦٩٧م، في مواجهة حلف من الإمبراطورية الرومانية المقدسة (مملكة الهابسبورج ومملكة المجر) وصربيا.

وقد أتيناك بقائمة حروب الدولة العثمانية وجهادها في قرن واحد من القرون الخمسة التي وحدت فيها بلاد الإسلام في ثلاث قارات، ورفعت راية حماية أمة الإسلام، ودفعت عنها الدولة الصفوية والأحلاف الأوروبية، لتدرك مدى الصفاقة وانعدام الحياء وقلة الأدب، التي يتمتع بها البلاليص القَعَدة في بلاليص ستان، الذين يتطاولون على الدولة العثمانية، وعلى فحول الساسة وقادة الجيوش من سلاطينها المجاهدين، ويطلقون عليها وعليهم الموظفين ومشايخ البلاط وحفظة الأكلشيهات، وبقر الصحف والشاشات، بينما هم يتواطؤون مع إمبراطوريات الغرب الماسونية، ولا بقاء لهم إلا بها، وأباحوا لها مياه الإسلام، وأسلموا لها بلاده ومقدساته وقدسه وأقصاه، ولا يعرفون عن الفتوح سوى أنها فتح فروج النساء.

دكتور بهاء الأمير

١١ محرم ١٤٤٢هـ/٣٠ أغسطس ٢٠٢٠م

دكتور بهاء الأمير

- **المؤلفات المطبوعة:**

١	كوسوفا، المذابح والسياسة، دار النشر للجامعات.
٢	النور المبين، رسالة في بيان إعجاز القرءان الكريم ، مكتبة وهبة.
٣	المسجد الأقصى القرءاني، دار الحرم للتراث.
٤	الوحي ونقيضه، بروتوكولات حكماء صهيون في القرءان، مكتبة مدبولي.
٥	اليهود والحركات السرية في الحروب الصليبية، مكتبة مدبولي.
٦	اليهود والماسون في الثورات والدساتير، مكتبة مدبولي.
٧	اليهود والماسون في ثورات العرب، مكتبة مدبولي.
٨	شفرة سورة الإسراء، بنو إسرائيل والحركات السرية في القرءان، مكتبة مدبولي.
٩	بروتوكولات حكماء صهيون، تقديم ودراسة، مكتبة مدبولي.
١٠	الانفجار الكبير، ماذا غير القرءان في العالم وماذا أحضر للإنسانية، مكتبة وهبة.
١١	تفسير القرآن بالسريانية دسائس وأكاذيب والأصول القبالية لتفسير الحروف المقطعة بالسريانية، مطبوع على نفقة المؤلف.
١٢	النازية واليهود والحركات السرية، مطبوع على نفقة المؤلف.
١٣	التفسير القبالي للقرآن وفقه البلابيص، مطبوع على نفقة المؤلف.
١٤	ولي الأمر المتغلب وهندسة المعيار والميزان، مطبوع على نفقة المؤلف.
١٥	اليهود والحركات السرية في الكشوف الجغرافية، وشركة الهند الشرقية البريطانية، مطبوع على نفقة المؤلف.
١٦	بلاليص ستان ١، أول الآتين من الخلف، مطبوع على نفقة المؤلف.
١٧	بلاليص ستان ٢، بذور المشروع اليهودي في الشام، مطبوع على نفقة المؤلف.
١٨	الرقيق في الإسلام وتجارة العبيد في الغرب، مطبوع على نفقة المؤلف.

- **دراسات ومقالات منشورة على الإنترنت(*):**

١	يهود الدونمة.
٢	اليهود والماسون في قضية الأرمن.
٣	حركة الجزويت اليسوعية.
٤	عن الإخوان والماسونية.
٥	معركة المادة الثانية من الدستور.
٦	قواعد في إدارة الصراعات والتعامل مع الأزمات.
٧	عن الفتنة والديمقراطية والحركات الإسلامية.
٨	نقد كتاب اليسوعية والفاتيكان والنظام العالمي الجديد.
٩	نقد استخدام حساب الجُمَّل والأعداد في الاستنباط من القرءان.
١٠	حقيقة ما يحدث في مصر.
١١	فرعون بين التوراة والقرءان.
١٢	المسألة الإخناتونية.
١٣	معركتنا مع اليهود نموذج قديم وأحداث جديدة.
١٤	الفريضة الغائبة عما يحدث في مصر، العلماء والميزان.
١٥	الشميطاه واليوبيل.
١٦	القبالاه والموسيقى.
١٧	نقد نظرية الأكوان المتوازية.
١٨	البِتكوين، العملة المشفرة.
١٩	حوار مع قادياني.
٢٠	قضية تحرير المرأة.
٢١	أصول دراسة إسلام بحيري عن سِن السيدة عائشة عند زواج النبي بها.

- **(*) روابط الكتب والدراسات في مدونة صناعة الوعي، ومدونة عالم الوحي على الإنترنت.**

٢٢	رد على نقد بخصوص كتاب شفرة سورة الإسراء:١ ،٢ ، ٣.
٢٣	اليهود الأخفياء.
٢٤	رسم المصحف وكلمات القرآن.
٢٥	اليهود والاشتراكية.
٢٦	المملكة وأردوغان.
٢٧	حفظة الأكلشيهات.
٢٨	اليهودي كرستوفر كولمبس ومشروع المارانو.
٢٩	يهود الخزر.
٣٠	الأزمة في الجزائر وأزمة الشرعية في الدول العربية.
٣١	أحداث الحادي عشر من سبتمبر.
٣٢	الأرض المسطحة.
٣٣	آل عثمان حماة مياه الإسلام.
٣٤	الإسلام والحركات الإسلامية والثورات
٣٥	حوار مع كائن فضائي.
٣٦	الخلافة والمُلك والدولة العثمانية وبلاليص ستان.
٣٧	جوته والإسلام والماسونية.
٣٨	نقد كتاب السامري الساحر المصري الذي أسس الماسونية.
٣٩	السلطان عبد الحميد وعبد الرحمن الكواكبي.
٤٠	القبالاه روح عصر النهضة والتنوير.
٤١	العراقيل أمام دراسة المسألة اليهودية في بلاليص ستان.
٤٢	حكماء صهيون وبروتوكولاتهم.
٤٣	اليهود والسُلطة وحكم العالم.
٤٤	الفرق بين المماليك والآتين من الخلف.
٤٥	السلطان عبد الحميد وتيودور هرتزل.

٤٦	بريطانيا واليهود.
٤٧	نابليون الماسوني واليهود.
٤٨	مستوطنة في جزيرة العرب ومستوطنة في سيناء.
٤٩	مقدمة وتعليقات على كتاب: المؤامرة الكونية، ليان فان هيلسنج، وترجمة: م/أحمد حمدي.
٥٠	درجات الماسونية ومراتبها وكلمات السر والرموز.
٥١	الترك وقتالهم.
٥٢	القسطنطينية وآخر الزمان.
٥٣	أخطاء الإسلاميين في الثورة.
٥٤	حكم قتل الكافر الحربي.
٥٥	كورونا.
٥٦	اليهود في الصين.
٥٧	نصيحة بخصوص تربية الأبناء.
٥٨	هارون الرشيد وشارلمان العظيم.
٥٩	الرقيق في الإسلام وتجارة العبيد في الغرب.
٦٠	الأرض والمقدسات بين التفسير الإسلامي والتفسير اليهودي.
٦١	القومية والعلمانية في التوراة.
٦٢	إلى أنصار الأرض المسطحة.
٦٣	الأسباط، شيطان بني إسرائيل، بنو إسرائيل واليهود، قابيل والمسيخ الدجال.
٦٤	أردوغان والمعمار القومي لبلاليص ستان.
٦٥	الرقيق والاسترقاق في هذا الزمان.
٦٦	الدولة العثمانية والمغرب.

- **قصص قصيرة:**

١	جيفارا.
٢	مجاهد بن عبد الله الأزهري.

٣	علميها رمي الحجر.
٤	أبو خربان.

- **المرئيات(•):**

<u>أولاً:</u> مع الكاتب والمفكر الإسلامي جمال سلطان في برنامج حوارات بقناة المجد:

١	بروتوكولات حكماء صهيون، في مواجهة دكتور عبد الوهاب المسيري ودكتور أحمد ثابت.
٢	اليهود في الغرب، في مواجهة دكتور عمرو حمزاوي.

<u>ثانياً:</u> مع الشاعر المبدع والإعلامي اللامع أحمد هواس في برنامج قناديل وبرنامج كتاب الأسبوع بقناة الرافدين:

١	الوحي ونقيضه.
٢	المسجد الأقصى القرءاني.
٣	خفايا شفرة دافنشي.
٤	ملائكة وشياطين.
٥	دور الحركات السرية في إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية والرموز اليهودية والماسونية في الدولار الأمريكي.
٦	القبالاه، التراث السري اليهودي ، وآثارها في العالم.
٧	التنجيم والأبراج، أصلها وحقيقتها.
٨	البلدربرج حكومة العالم الخفية.
٩	الرمز المفقود.
١٠	لماذا العراق؟ خفايا الغزو الأمريكي للعراق.
١١	نبوءة نهاية العالم، الأساطير والحقائق.
١٢	البابية والبهائية، صِلاتها باليهود والغرب والحركات السرية.
١٣	القاديانية والنصيرية، صِلاتها باليهود والغرب والحركات السرية.

(•) مرئيات دكتور بهاء الأمير موجودة على شبكة المعلومات الدولية ، الإنترنت، في موقع يوتيوب وفي العديد من المواقع الأخرى.

<u>ثالثاً</u>: مع الإعلامي والداعية الإسلامي خالد عبد الله في برنامج مصر الجديدة بقناة الناس:

١	خفايا الماسونية ومنظمات المجتمع المدني، الجزء الأول.
٢	خفايا الماسونية ومنظمات المجتمع المدني، الجزء الثاني.
٣	خفايا الماسونية ومنظمات المجتمع المدني، الجزء الثالث.
٤	الاحتفال الماسوني عند الهرم الأكبر، حقيقته والهدف منه.
٥	دكتور محمد البرادعي، مواقفه وأفكاره.

<u>رابعاً</u> : مع الإعلامي والشاعر والداعية الإسلامي دكتور محمود خليل في برنامج الدين والنهضة بقناة مصر ٢٥:

١	الفوضى في مصر، أسبابها ومن المستفيد منها.
٢	مصر بعد الثورة، الأخطار الداخلية والخارجية.
٣	رمضان شهر القرءان.
٤	الثورة والدولة.

<u>خامساً</u> : مع الإعلامي ياسر عبد الستار في قناة الخليجية:

١	الماسونية والثورات.

<u>سادساً</u> : في قناة الحدث :

١	من خلف الثورات.
٢	المشروع اليهودي وحروب الجيل الرابع.
٣	من هي إسرائيل؟
٤	يهودية إسرائيل.
٥	حقيقة الماسونية

<u>سابعاً</u>: في معرض القاهرة الدولي للكتاب ٢٠١٣م:

١	نقد كتاب: سر المعبد للأستاذ ثروت الخرباوي.

<u>ثامناً</u>: في عالم السر والخفاء، برنامج من إعداد وتقديم دكتور بهاء الأمير:

١	عالم السر والخفاء.

٢	جولة في عالم السر والخفاء.
٣	بيان الإله.
٤	الوحي.
٥	الطلاسم.
٦	في الملأ الأعلى.
٧	خريطة الوجود.
٨	الأمم المتحدة.
٩	حقوق الإنسان.
١٠	تحرير المرأة.
١١	اتفاقيات المرأة في الأمم المتحدة.
١٢	الهندوسية.
١٣	جمعية الحكمة الإلهية.
١٤	الحكيمة فوزية دريع.
١٥	حركة العهد الجديد والأمم المتحدة القبالية.
١٦	الماسونية وبناتها.
١٧	الوحي ونقيضه.
١٨	أخوية فيثاغورس
١٩	المخطوط العبري.
٢٠	قلب الماسونية.
٢١	وسائل الانفصال الاجتماعي.

تاسعاً: مقاطع وحوارات مصورة في المنزل:

١	بلاليص ستان: سبعة عشر مقطعاً.
٢	رد على نقد: أربعة مقاطع.
٣	الشورى والديمقراطية: أربعة مقاطع.

٤	أخطاء الإسلاميين: مقطعان.
٥	نبوءات: أربعة مقاطع.
٦	المادة الثانية من الدستور: خمسة مقاطع.
٧	التاريخ السري للغرب: ستة مقاطع.
٨	الوحي ونقيضه.
٩	العقائد والسياسة.
١٠	الناس من غير الدين بهائم.
١١	نفي الألوهية والخلق والوحي أصل الليبرالية والماركسية.
١٢	الأناركية.
١٣	حوار مع معالج بالطاقة.
١٤	علميها رمي الحجر.
١٥	اليهود في الماسونية ج١ الطقوس والرموز.
١٦	اليهود في الماسونية ج٢ درجات الماسونية ومراتبها وكلمات السر ومعانيها.
١٧	أبو خربان.

- **السمعيات :**

١	برنامج في مكتبة عالم بإذاعة القرءان الكريم، ثلاث حلقات.
٢	برنامج مقاصد الشريعة بإذاعة القرءان الكريم، أربع عشرة حلقة.